بعد سنوات
ثروت أباظة

فى اوروبا الشعراء كان يسير مفتونا بسمرته وعيونه السود وقامته الفارعة . وفى سويسرا الباردة كان هو مفتونا بدمائه الفائرة الحارة . وكانت النساء يتهافتن على نظرة منه يعطيها موعد . واحس هو بغيرة نفسه فاصبح يختار فى دقة شديدة وفى بطء وافق مطمئن . الا واحدة لم تكن تحفل به فما التفتت منه بنظرة ولا موعدا . كانت امينة المكتبة فى كلية الحقوق . وكان لابد له ان يذهب كثيرا الى هذه المكتبة فمنها كان يعد الدكتوراه التى فارق مصر من اجلها . وكانت امينة المكتبة فتاة نكرة بعض الشىء ولكنها كانت فى زهرة الشباب الصارخ الأحمر فى عينيها اسئوده حالكة وفى شعرها قبله نابضة ، كان يحس كلما نظر اليها انها عرفت الحياة وانها لم يسرها ما عرفته من الحياة فكان يريد ان يسألها ما بك ولكنه لم يكن يستطيع فقد كانت لا تكلمه الا فيما يتصل بما يطلب من كتب . واذا قال صاح الخير كانت اجابتها ناهته محاياده بلا اهمال أو تشجيع . فاذا اراد ان يحصل من موضوع كتاب طريقا له ان يقول شيئا وجدها بارعة فى وضع الخطة المناسبة لتقل الموضوع نهائيا .

وتضيق بهذا الموقف منها ويوشك أن يعزم فى دخيلة نفسه أن يقطع ما بينه وبينها ولكنه لا يجد شيئا بينها وبينه حتى يقطعه . عشور نفسه . انه يريد ان يكون بينه وبينها شىء اى شىء .. أيحبها لم يكن يدرى .. أيكرهها لعله .. انه يضيق بأمرها لا شك فى ذلك . ويفكر فيها ويطيل التفكير ويذهب كل يوم الى المكتبة فيلتقى بجمالها الفريد الصارخ وبهدوئها الذى جعلت منه سياجا من الثلج البارد الباهت . ويأخذ ما يريد من كتب او يرد ما أخذ فلا حديث بينهما . ويخرج ثائرا لا يستطيع أن يجد لثورته متنفسا .

وفى يوم ذهب الى السينما . وكان وحيدا فجأة وقعت عليها عيناه . انها هناك وحدها وقعت عليها عيناه لم يرفعهما عنها . فما هى الا لحظات قلائل حتى مالت على الكرسى بجانبها ونظر الى الكرسى بجانبها فوجد طفلة صغيرة لم يصبر وانما اندفع خارجا من السينما واشترى اشياء للأطفال ، اشياء كثيرة . لم يكن يعى شيئا الا ان يشترى كثيرا بكل ما تتيح له النقود التى بجيبه ان يشترى .. شكولاته وعروسا صغيرة تتمتص عنها وتفتحهما وتنوء بكلمة ماما ، وقردا يقرع طبلته ويهز رأسه .. و .. ونفدت النقود . وعاد الى السينما فوجدها قد أظلمت فعاد فى كرسيه ينتظر الاستراحة وهو لا يعى شيئا مما يرى .. ومر العرض امامه لحظات بطيئة . بطيئة وهو يتقاعر على كرسيه من فرط اللهفة . واضيئت الانوار بعد لأى . وامسك هو اللفافة وذهب الى الكرسى بجانب الفتاة الصغيرة وقصد وقال للطفلة :

ـ ماما الخير .

ونظرت اليه الطفلة ثم نظرت الى امها وكأنها تسألها ماذا افعل فى هذا الغريب ونظرت اليه الأم وابتسمت وقالت وقد داخل صوتها بعض دفء .

ـ مساء الخير .

وكأنما احس أن الحليد يوشك ان يذوب فقال لها فى جد .

ـ يا سيدتى أنا احبى هذه الطفلة الجميلة وأريدها هى ان تحبنى .

ونظرت الفتاة الى امها وابتسمت فابتسمت الطفلة ونظرت الى توفيق

مساء الخير .

وبدا توفيق يضع يده فى اللفافة واخرج الشكولاته وقدمها اليها وعادت الطفلة تنظر الى امها وأومأت الأم لابنتها ان تأخذ الهدية فأخذتها وهى تقول فى صوت طفل اشكرك .

ثم وضع يده فى اللفافة واخرج العروس ولم تنظر الفتاة الى امها وانما مدت يدها فى لهفة وهى تقول

اهذه لى .

وقالت الأم وقد عاود صوتها البرود .

ـ لا .

ودخلت الفتاة ذهولا حزينا وسارع توفيق قائلا

ـ وانت كيف تعرفين انها لبنت لها .. اتعتقدين أنى اشتريت هذه العروس لى ام تراني اشتريتها لك انت .

ورأى على وجهها مطالع ابتسامة ولكنها قالت :

ـ لا يجوز ان تأخذ اكثر مما أخذت

ـ وانت يا سيدتى ما شانك .. انى اقدم لصديقتى الجديدة الهدايا التى ارى من المناسب ان اقدمها وهى حرة ان تقبل ما تشاء او ترفض ما تشاء .

ـ لا .

وقال توفيق فى جد .

ـ سألها هى ..

ونظرت الأم الى ابنتها فوجدت اللهفة فى عينيها ولم ينتظر توفيق وانما قال للطفلة .

ـ هيه . هل تقبلين هديتى .

واختطفت الطفلة عروسها واحتضنتها ونظرت الى امها نظرة فيها طلع وفيها رجاء وفيها رعشة ورأت الأم فى عينى ابنتها كل هذه المعانى فلم تملك نفسها من ان تبتسم وتقول لها فى عطف .

ـ ألا تقولين شكرا على الأقل .

ونظرت الطفلة الى توفيق وهى لا تكاد تصدق اذنيها وراحت تقول

ـ شكرا .. الف شكر

وقال توفيق

ـ حمدة الحاوى لم تفرح بعد .

وقالت الأم

ـ وماذا ايضا .

وقال توفيق

ـ ياسيدتى ارجو الا تدخلى فيما لا يعنيك .. هذا أمر بينى وبين هذه الآنسة .

واخرج القرد من اللفافة . وانبهرت الطفلة ومدت يدها ولكن يدها توقفت فى منتصف الطريق ونظرت الى امها تلك النظرة التى تخلط الهلع بالرجاء بالرغبة وابتسمت الأم واختطفت الطفلة القرد وقالت الأم .

ـ هذا كثير . كثير جدا .. انت طيب غاية الطيبة .

ـ وانت لماذا لم تكونى طيبة أبدا ..؟

وضحكت وهى تقول

ـ نقصد فى عملى .

ـ نعم ـ

ـ تصور لو انني اصبحت طبيبة مع جميع الشبان الذين يدخلون المكتبة .

ـ مع جميع الشبان ؟!

ـ كل شاب منهم يظن نفسه أجمل انسان في الدنيا ويعتقد ان سحره لا يقاوم وانا لا اطيق الغرور .

ـ لعلك لا تطيقين الشبان .

ـ ابدا ولكن ..

وقبل ان تكمل جملتها أطفأت الأنوار وبدأ العرض وصمتت مادلين وصمت توفيق وراحت فيكي تهز العروس حينا وتداعب القرد حينا آخر وتأكل قطعة من الشكولاته في حين قالت والأم تحس بالسعادة التي تعمر نفسها .

وانتهى العرض وقال توفيق في بساطة

ـ كنت احب ان ادعوك انت وفيكي الى العشاء ولكنني ابقيت كل نقودي على صديقتي .

وقالت مادلين :

ـ فانا ادعوك الى العشاء .

ـ وانا اقبل .

ـ في منزلي .

ـ طبعا سأتعرف بزوجك .

وصمتت مادلين لحظات ثم قالت :

ـ وما الباس .

ـ لا باس .

ـ اذن فهيا بنا .

ـ هيا بنا .

وذهب الى منزلها وتركته يلعب مع فيكي وراحت هي تعد العشاء ولم يطل غيابها فرغم ما عادت وفي يدها أكل فيكي واخذت فيكي الى سريرها ثم عادت بعد قليل تحمل الأطباق فقام توفيق يعاونها حتى اذا اعدت المائدة قالت له

ـ والآن الى العشاء .

ـ ولكن الا تنتظر .

ـ تقصد زوجي .. ؟

ـ نعم .

ـ انه لن يأتي .

ـ هل انت واثقة .

ـ كل الثقة .

ـ امرك .

وجلسا وتناولا العشاء وقالت وهي تشعل سيجارة .

ـ اتدري انني احسدك .

ـ لماذا .. البست واحدا من هؤلاء الشبان الذين تكرهين .

ـ لا .. لقد احضرت لابنتي اللعب وجئت معي الى البيت وانت تظن انني اعيش مع زوجي . فلم يدعوك الى ما فعلت الا طيبة حقيقية تملأ نفسك انني احبك .

ـ الا تعيشين مع زوجك .. ؟

ـ افترقنا منذ فيكي في المهد .

ـ يا له من غبي .

ـ كيف تعرف .

ـ انني انسان في الدنيا .

واصبحت صداقة .. وقليلا ما دامت الصداقة فاذا هي حب .. حب عارم آخذ لا يبقي على شيء .. احبها بكل دمائه وكل شبابه وكل آماله وكل احلامه .. احبها كالشباب .. كالآمال .. كالرؤى .. كالنظرة الى الأيام الوردية في حياة في بعض تعبير الأوقات .

واحبته .. وقال لها يوما .

ـ اتتزوجيني .

ودون مهل من تفكير أو ريث من تؤدة .

ـ عاملت أحمد .

ونسى أباه وماذا هو فاعل ان عرف ، ونسى أمه ؛ ونسى أخاه ونسى أخته .. أو هو قد تذكر هؤلاء جميعا ولكنه يحب .. شاب مخلص وفى نفس ملىء بالصراحة والشباب يحب .. قال لها :

ـ أنهى دراستى بعد شهرين .. بعد شهرين سأسافر وحدى واترك لك أشيائى هنا وبعد شهرين واسبوع ستجدين منى خطابا اليك ان تلحقى بى أنت وعمكى وبعد شهرين وثمانية أيام نصبح زوجين .

ومر الشهران وعاد الى القاهرة وعاوده الأريج المصرى .. وكانما كان فى غربة ثم افاق .. ما مصير زوجته السويسرية هنا . وما مصيره هو معها .. سيعيشان فى غربة سيعتزلان مصر وسيعيشان من بيتهما قطعة من سويسرا منفردة وحيدة لا هى مصرية ولا هى سويسرية وانما شىء شاذ فى غير موضعه لم لم يقل لأبيه شيئا ولم يقل شيئا لغير أبيه . أفاق على أريج مصر وحدها .. وراحت الخطابات تترى من مادلين ومر الأسبوع والأسبوعان .. ثم مر الشهر والشهران والخطابات لا تنقطع وهو يحيب داعلاء من عقله .. مكان جديد منه لم تعرفه مادلين فقد عرفته فى قلبه وفى مشاعره ولم تر عقله أبدا .. فهى تراه اليوم فى خطاباته .. ويمر العام وتصبح الخطابات منها وكانها الماء فى المجرى جف ماؤه بعد أن كان جياش الماء صاخبه ، ثم تنقطع الخطابات ويجف اليم ويصبح حصى .

وتعرف توفيق بابنة عمه .. كانت فتاة جديدة عليه تركها وهى طفلة فى الثانية عشر ووجدها فتاة فى السابعة عشر .. ودون ان يتكلم خطبها ابوه ودون ان يتكلم وافق على الخطبة .. الشىء الوحيد الذى فعله حين أخبره أبوه انه خطب الهام انه قام الى درج مكتبه واخرج خطابات مادلين ومزقها جميعا واحس أنه أصبح خالصا لزوجته بجميعه .. بماضيه وحاضره ومستقبله .

ومرت بهما الأعوام كما تمر بالأرواح السعداء .. قليل من العتاب وقليل من المعاصبه وقليل من الغيرة وقليل من المشاكل وقليل من الأطفال وقليل من المرح وقليل من الأنس وقليل من الاطمئنان وقليل من القلق .. ومرت الأعوام .

وفى يوم جلس الى مكتبه .. لقد مرت به سنوات طويلة لم ينظم الأوراق فيه .. أخرج الأوراق وراح يقلبها ويقلب معها سنى حياته .. ذكريات كثيرة تحملها أوراق مكتبه .. وفجأة وجد خطابا من مادلين ومعه صورة لها ولابنتها .. كان هذا الخطاب قد هرب منه واختفى يوم مزق أخواته ..

قرأ توفيق الخطاب وحين انتهى منه ونظر الى الصورة وجد عينيه لاتستطيعان الاصطام فيها .. كانت هناك دموع .. لعلها قبض من السنين يحول بينه وبين عينه أن يبصرا النظر .. مسح الدموع ولم يستطع ان يمسح السنين . وعاد الى الخطاب ثم عاد الى الصورة .

وفى صمت طوى الخطاب فى عناية ووضع الصورة فى داخله وبحث عن ظرف وردى واودعه الخطاب والصورة ثم لم يقفل الظرف وانما وضعه فى حنان فى أعماق الدرج وترك الدرج خاليا الا منه .